شرح

العقيدة الطحاوية

جمهور المذاهب الأربعة على الحق يقرؤون عقيدة الطحاوي، التي تلقاها العلماء سلفاً وخلفاً بالقبول.

السبكي

حققها وراجعها
جماعة من العلماء

خرج أحاديثها
محمد ناصر الدين الألباني

دار الفكر العربي

ترجمة الإمام الطحاوي
صاحب العقيدة

هو أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن سلمة بن عبد الملك بن سلمة بن سليم بن سليمان بن جواب الأزدي الطحاوي ـ نسبة الى قرية بصعيد مصر ـ الامام المحدث الفقيه الحافظ .

ولد رحمه الله سنة تسع وثلاثين ومائتين ، وعندما بلغ سن الادراك تحول الى مصر لطلب العلم ، وأخذ يتلقى العلم على خاله اسماعيل ابن يحيى المزني أفقه أصحاب الامام الشافعي . وكان كلما اتسعت دائرة أفقه يجد نفسه حائراً أمام كثير من المسائل الفقهية ، ولم يكن ليجد عند خاله ما يشفي غليله عنها ، فأخذ يترقب ما يصنعه خاله عندما تعترضه تلك المسائل ، فاذا هو كثير التعريج على كتب أصحاب أبي حنيفة ، واذا هو يختار ما ذهب اليه أبو حنيفة في كثير منها ، وقد أودع هذه الاختيارات في كتابه « مختصر المزني » .

توفي رحمه الله سنة احدى وعشرين وثلاثمئة ليلة الخميس مستهل ذي القعدة بمصر ودفن بالقرافة .

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

الحمد لله /، نحمده ، و/ نستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له .

وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد : فإنه لما كان علم أصول الدين أشرف العلوم ، اذ شرف العلم بشرف المعلوم ، وهو الفقه الاكبر بالنسبة الى فقه الفروع ، ولهذا سمى الامام أبو حنيفة رحمة الله عليه ما قاله وجمعه في أوراق من أصول الدين: « الفقه الاكبر » وحاجة العباد اليه فوق كل حاجة ، وضرورتهم اليه فوق كل ضرورة ، لانه لا حياة للقلوب ، ولا نعيم ولا طمأنينة ، الا بأن تعرف ربّها ومعبودها وفاطرها ، بأسمائه وصفاته وأفعاله . ويكون مع ذلك كله أحب اليها مما سواه ، ويكون سعيها فيما يقربها اليه دون غيره من سائر خلقه .

ومن المحال أن تستقل العقول بمعرفة ذلك وادراكه على التفصيل ، فاقتضت رحمة العزيز الرحيم أن بعث الرسل به معرّفين ، واليه داعين ، ولمن أجابهم مبشرين ، ولمن خالفهم منذرين ، وجعل مفتاح دعوتهم ، وزبدة رسالتهم ، معرفة المعبود سبحانه بأسمائه وصفاته وأفعاله ، اذ على هذه المعرفة تبنى مطالب الرسالة كلها من أولها الى آخرها .

ثم يتبع ذلك أصلان عظيمان :

أحدهما : تعريف الطريق الموصل اليه ، / وهي شريعته المتضمنة لامره ونهيه .

والثاني : تعريب السالكين ما لهم بعد الوصول اليه/من النعيم المقيم.

فأعرف الناس بالله عز وجل أتبعهم للطريق الموصل اليه ، وأعرفهم بحال السالكين عند القدوم عليه . ولهذا سمى الله ما أنزله على رسوله روحا ، لتوقف الحياة الحقيقية عليه ، ونورا لتوقف الهداية عليه . فقال الله تعالى: (يُلقي الروحَ مِن أمرِه على مَنْ يشاءُ مِن عبادِه) المؤمن : ١٥ . وقال تعالى : (وكذلكَ أوحَينا اليك روحا مِنْ أمرِنا ما كُنتَ تدري ما الكتابُ ولا الايمانُ ولكنْ جعلناهُ نورا نهدي به مَنْ نشاءُ مِنْ عبادِنا وانّكَ لتَهدي الى صراط مُستقيم . صراطِ اللهِ الذي لهُ ما في السمواتِ وما في الارضِ ألا الى اللهِ تصيرُ الامورُ) الشورى : ٥٢ ، ٥٣ . ولا روح الافيما جاء به الرسول ، ولا نور الا في الاستضاءة به ، وسماه الشفاء ، كما قال تعالى : (قُلْ هُوَ للّذين آمنوا هُدىً وشِفاء") فصلت : ٤٤ . فهو وان كان هدى وشفاء مطلقا ، لكن لما كان المنتفع بذلك هم المؤمنين ، خصوا بالذكر .

والله تعالى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ، فلا هدى الا فيما جاء به .

ولا ريب أنه يجب على كل أحد أن يؤمن بما جاء به الرسول ايمانا عاما مجملا ، ولا ريب أن معرفة ما جاء به الرسول على التفصيل فرض" على الكفاية ، فان ذلك داخل في تبليغ ما بعث الله به رسوله ، وداخل في تدبُّر القرآن وعقله وفهمه ، وعلم الكتاب والحكمة ، وحفظ الذكر ، والدعاء الى الخير ، والامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والدعاء الى سبيل الرب بالحكمة والموعظة الحسنة ، والمجادلة بالتي هي أحسن ، ونحو ذلك مما[1] أوجبه الله على المؤمنين ، فهو واجب على الكفاية منهم .

---

(١) في الاصل : ما .

وأما ما يجب على أعيانهم : فهذا يتنوع بتنوع قدَرِهم ، وحاجتهم ومعرفتهم ، وما أمر به أعيانهم ، ولا يجب على العاجز عن سماع بعض العلم أو عن فهم دقيقه ما يجب على القادر على ذلك . ويجب على من سمع النصوص وفهمها من علم التفصيل ما لا يجب على من لم يسمعها ، ويجب على المفتي والمحدّث والحاكم ما لا يجب على من ليس كذلك .

وينبغي أن/يُعرف/ أن عامة من ضل في هذا الباب أو عجز فيه عن معرفة الحق ، فإنما هو لتفريطه في اتباع ما جاء به الرسول ، وترك النظر والاستدلال الموصل الى معرفته . فلما أعرضوا عن كتاب الله ضلوا ، كما قال تعالى : (فإمّا يأتينّكم منّي هُدىً فَمَنِ اتّبعَ هُداي فلا يَضِلُّ ولا يَشقى . ومَن أعرضَ عن ذِكري فإنّ لهُ معيشةً ضنكاً ونَحشُرُه يَومَ القيامةِ أعمى . قال ربِّ لِمَ حشرتني أعمى وقد كنتُ بصيراً . قالَ كذلكَ أتتكَ آياتُنا فنَسيتَها وكذلك اليوم تُنسى) طه : ١٢٣ ـ ١٢٦ .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : تكفّل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه ،/أن/لا يضل في الدنيا ، ولا يشقى في الاخرة ثم قرأ هذه الآيات . وكما في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره عن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :.« انها ستكون فتن » قلت : فما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال : « كتاب الله ، فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ، ليس بالهزل ، من تركه من جبّار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذي لا تزيغ به الاهواء ، ولا تلتبس به الالسن ، ولا تنقضي عجائبه ، ولا تشبع [1] منه العلماء ، من قال به صَدَق ، ومن عمل به أجِر ،

(١) في الاصل : يشبع . وفي « سنن الترمذي » بالياء والتاء .

ومن حكم به عدل ، ومن دعا اليه هدي الى صراط مستقيم »[1] الى غير ذلك من الآيات والاحاديث ، الدالة على مثل هذا المعنى .

ولا يقبل الله من الاولين والآخرين دينا يدينون به ، الا أن يكون موافقا لدينه الذي شرعه على ألسنة رسله عليهم السلام .

وقد نزّه الله تعالى نفسه عما يصفه العباد ، الا ما وصفه به المرسلون بقوله سبحانه : (سُبحانَ ربِّكَ ربِّ العِزّةِ عمّا يَصِفونَ . وسَلامٌ على المُرسَلين . والحمدُ للهِ ربِّ العالمين) الصافات : ١٨٠ ــ ١٨٢ . فنزه نفسه سبحانه عما يصفه به الكافرون ، ثم سلّم على المرسلين ، لسلامة ما وصفوه به من النقائص والعيوب ، ثم حمد نفسه على تفرده بالاوصاف التي يستحق عليها كمال الحمد .

ومضى على ما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم خيرُ القرون ، وهم الصحابة والتابعون لهم بإحسان ، يوصي به الاول الآخر[2] ويقتدي فيه اللاحق بالسابق . وهم في ذلك كله بنبيهم محمد صلى الله عليه وسلم مقتدون ، وعلى منهاجه سالكون ، كما قال تعالى في كتابه العزيز : (قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني) يوسف : ١٠٨ . فان كان قوله : (ومن اتّبعني) معطوفا على الضمير في (أدعو) ، فهو دليل على أن أتباعه هم الدعاة الى الله . وان كان معطوفا على الضمير المنفصل ، فهو صريح أن أتباعه هم أهل البصيرة فيما جاء به دون غيرهم ، وكلا المعنيين حق .

---

(١) هذا حديث جميل المعنى ، ولكن اسناده ضعيف ، فيه الحارث الاعور ، وهو لين ، بل اتهمه بعض الائمة بالكذب ، ولعل اصله موقوف على علي رضي الله عنه ، فأخطأ الحارث فرفعه الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

(٢) في الاصل : للاخر .

وقد بلّغ الرسول صلى الله عليه وسلم البلاغ المبين ، وأوضح الحجة للمستبصرين ، وسلك سبيلَه خيرُ القرون .

ثم خلف من بعدهم خلف اتبعوا أهواءهم ، وافترقوا ، فأقام الله لهذه الامة من يحفظ عليها أصول دينها ، كما أخبر الصادق صلى الله عليه وسلم بقوله : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خذلهم »[1] .

وممن قام بهذا الحق من علماء المسلمين : الامام ابو جعفر احمد بن محمد بن سلامة الازدي الطحاوي ، تغمده الله برحمته ، بعد المائتين ، فان مولده سنة تسع وثلاثين ومائتين ، ووفاته / سنة احدى وعشرين / وثلاثمائة[2] .

فأخبر رحمه الله عما كان عليه السلف ، ونقل عن الامام أبي حنيفة النعمان ابن ثابت الكوفي ، وصاحبيه أبي يوسف يعقوب بن ابراهيم الحميري الانصاري ، ومحمد بن الحسن الشيباني رضي الله عنهم ـ ما كانوا يعتقدون من أصول الدين ، ويدينون به رب العالمين .

وكلما بعُد العهد ، ظهرت البدع ، وكثُر التحريف ، الذي سماه أهله تأويلا ليقبل ، وقل من يهتدي الى الفرق بين التحريف والتأويل . اذ قد يسمى[3] صرف الكلام عن ظاهره الى معنى آخر يحتمله اللفظ في

---

(١) متفق عليه من حديث جمع من الصحابة ، «الصحيحة» (٢٧٠).

(٢) تجد ترجمته مفصلة في : « تذكرة الحفاظ » للذهبي ٣ : ٢٨ ـ ٢٩ و « تاريخ ابن كثير » ١١ : ١٧٤ . و « المنتظم » لابن الجوزي ٦ : ٢٥ . و « شذرات الذهب » ٢ : ٢٨٨ . و « اللباب » لابن الاثير ٢ : ٨٢ . و « الجواهر المضية » لابن ابي الوفاء ١ : ١٠٢ ـ ١٠٥ . و « الفوائد البهية » : ٣١ ـ ٣٤ . و « لسان الميزان » ١ : ٢٧٤ ـ ٢٨٢ . و « تهذيب تاريخ ابن عساكر » ٢ : ٥٤ ـ ٥٥ ـ و « ابن خلكان » ١ : ٥٣ ـ ٥٥ طبعة مكتبة النهضة بمصر .

(٣) في الاصل : سمّي .

الجملة تأويلا ، وان لم يكن ثَمَّ قرينة توجب ذلك ، ومن هنا حصل الفساد . فإذا سموه تأويلا قبل وراج على من لا يهتدي الى الفرق بينهمـــا .

فاحتاج المؤمنون بعد ذلك الى ايضاح الادلة ، ودفع الشبه الواردة عليها ، وكثر الكلام والشغب ، وسبب ذلك اصغاؤهم الى شبه المبطلين، وخوضهم في الكلام المذموم ، الذي عابه السلف ، ونهوا عن النظر فيه والاشتغال به والاصغاء اليه، امتثالا لامر ربهم ، حيث قال : (واذا رأيتَ الَّذينَ يخوضونَ في آياتِنا فَأَعرِضْ عَنْهُمْ حتَّى يَخوضوا في حديثٍ غيرِه) الانعام : ٦٨ . فان معنى الآية يشملهم .

وكلٌّ من التحريف والانحراف على مراتب : فقد يكون كفرا ، وقد يكون فسقا ، وقد يكون معصية ، وقد يكون خطأ .

فالواجب اتباع المرسلين ، واتباع ما أنزله الله عليهم . و /قد/ ختمهم الله بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فجعله آخر الانبياء ، وجعل كتابه مهيمنا على ما بين يديه من كتب السماء ، وأنزل عليه الكتاب والحكمة ، وجعل دعوته عامة لجميع الثقلين ، الجن والانس ، باقية الى يوم القيامة ، وانقطعت به حجة العباد على الله . وقد بين الله به كل شيء ، وأكمل له ولامته الدين خبرا وأمرا ، وجعل طاعته طاعة له ، ومعصيته معصية له ، وأقسم بنفسه أنهم لا يؤمنون حتى يحكّموه فيما شجر بينهم ، وأخبر أن المنافقين يريدون أن يتحاكموا الى غيره ، وأنهم اذا دعوا الى الله والرسول ، وهو الدعاء الى كتاب الله وسنة رسوله ــ صَدّوا صدودا ، وأنهم يزعمون أنهم انما أرادوا احسانا وتوفيقا ، كما يقوله كثير من المتكلمة والمتفلسفة وغيرهم : انما نريد أن نحس الاشياء بحقيقتها ، أي ندركها ونعرفها ، ونريد التوفيق بين الدلائل التي يسمونها العقليات ، ــ وهي في الحقيقة : جهليات ــ وبين الدلائل النقلية المنقولة عن الرسول ،

أو نريد التوفيق بين الشريعة والفلسفة . وكما يقوله كثير من المبتدعة ، من المتنسكة والمتصوفة : انما نريد الاعمال بالعمل الحسن ، والتوفيق بين الشريعة وبين ما يدّعونه من الباطل ، الذي يسمونه : حقائق وهي جهل وضلال . وكما يقوله كثير من المتملكة والمتأثرة : انما نريدالاحسان بالسياسة الحسنة ، والتوفيق بينها وبين الشريعة ، ونحو ذلك .

فكل من طلب أن يتحكّم في شيء من أمر الدين غير ما جاء به الرسول ، ويظن أن ذلك حسن ، وأن ذلك جمع بين ما جاء به الرسول وبين ما يخالفه ـ فله نصيب من ذلك ، بل ما جاء به الرسول كاف كامل ، يدخل فيه كل حق ، وانما وقع التقصير من كثير من المنتسبين اليه ، فلم يعلم ما جاء به الرسول في كثير من الامور الكلامية الاعتقادية ، ولا في كثير من الاحوال العبادية ، ولا في كثير من الامارة السياسية ، أو نسبوا الى شريعة الرسول ، بظنهم وتقليدهم ، ما ليس منها ، وأخرجوا عنها كثيرا مما هو منهـا .

فبسبب جهل هؤلاء وضلالهم وتفريطهم ، وبسبب عدوان أولئـك وجهلهم ونفاقهم ، كثر النفاق ، ودَرَس كثير من علم الرسالة .

بل/ انما يكون/ البحث التام ، والنظر القوي ، والاجتهاد الكامل ، فيما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، ليعلم ويعتقد ، ويعمل به ظاهرا وباطنا فيكون قد تلي حق تلاوته ، وأن لا يهمل منه شيء .

وان كان العبد عاجزا عن معرفة بعض ذلك ، أو العمل به ، فلا ينهى عما عجز عنه مماجاء به الرسول ، بل حسبه أن يسقط عنه اللوم لعجزه ، لكن عليه أن يفرح بقيام غيره به ، ويرضى بذلك ، ويود أن يكون قائما به ، وأن لا يؤمن ببعضه ويترك بعضه ، بل يؤمن بالكتاب كله ، وأن يصان عن أن يدخل فيه ما ليس منه ، من رواية أو رأي ، أو يتبع ماليس من عند الله ، اعتقادا أو عملا ، كما قال تعالى : (ولا تلبسوا الحـق

بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون﴾ البقرة : ٤٢ .

وهذه كانت طريقة السابقين الاولين ، /وهي طريقة التابعين لهم بإحسان الى يوم القيامة . وأولهم السلف القديم من التابعين الاولين/ ، ثم من بعدهم . ومن هؤلاء أئمة الدين المشهود لهم عند الامة الوسط[1] بالامـــامة .

فعن أبي يوسف رحمه الله تعالى أنه قال لبشر المريسي[2] : العلم بالكلام هو الجهل ، والجهل بالكلام هو العلم ، واذا صار الرجل رأسا في الكلام قيل : زنديق ، أو رمي بالزندقة . أراد بالجهل به اعتقاد عدم صحته ، فإن ذلك علم نافع ، أو أراد به الاعراض عنه أو ترك الالتفات الى اعتباره . فان ذلك يصون علم الرجل وعقله فيكون علما بهـذا الاعتبار . والله أعلم .

وعنه أيضا أنه قال : من طلب العلم بالكلام تزندق ، ومن طلب المال بالكيميا أفلس ، ومن طلب غريب الحديث كذب .

وقال الامام الشافعي رحمه الله تعالى : حكمي في أهل الكـلام أن يضربوا بالجريد والنعال ، ويطاف بهم في العشائر/والقبائل/ ، ويقال : هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على الكلام .

وقال أيضا رحمه الله تعالى (شعرا) :

كل العلوم سوى القرآن مشغلة ... الا الحديث والا الفقه في الدين
العلم ما كان فيـه قال حدثنا ... وما سوى ذاك وسواس الشياطين

---

(١) الوسط هنا : خيار الناس وعدولهم ، كما في قوله تعالى : (وكذلك جعلناكم امة وسطا) .

(٢) هو بشر بن غياث المريسي ابو عبد الرحمن فقيه معتزلي يرمـى بالزندقة اخذ الفقه عن ابي يوسف وهو راس الطائفة المريسية قال عنه في « اللسان » : مبتدع ضال لا ينبغي ان يروى عنه ولا كرامة .

وذكر الاصحاب في الفتاوى ؛ أنه لو أوصى لعلماء بلده : لا يدخل المتكلمون ، وأوصى انسان أن يوقف من كتبه ما هو من كتب العلم ، فأفتى السلف أن يباع ما فيها من كتب الكلام . ذكر ذلك بمعناه في « الفتاوى الظهيرية » .

فكيف يرام الوصول الى علم الاصول ، بغير اتباع ما جاء به الرسول؟! ولقد أحسن القائل :

أيّها المغتدي ليطلبَ علما ... كلُّ علم عبدٌ لعلم الرسول
تطلبُ الفرعَ كي تصحّحَ أصلا ... كيف أغفلتَ علمَ أصلِ الاصول

ونبينا صلى الله عليه وسلم أوتي فواتح الكلِم وخواتمه وجوامعه ، فبعث بالعلوم الكلية والعلوم الاولية والاخروية على أتم الوجوه ،ولكن كلما ابتدع شخص بدعة اتسعوا في جوابها ، فلذلك صار كلام المتأخرين كثيرا ، قليل البركة ، بخلاف كلام المتقدمين ، فإنه قليل ، كثير البركة ، /لا/ كما يقوله ضلال المتكلمين وجهلتهم : ان طريقة القوم أسلم ، وان طريقتنا أحكم وأعلم ! و/لا/كما يقوله من لم يقدرهم من المنتسبين الى الفقه : انهم لم يتفرغوا لاستنباط الفقه وضبط قواعده وأحكامه اشتغالا منهم بغيره ! والمتأخرون تفرغوا لذلك ، فهم أفقه !!

فكل هؤلاء محجوبون عن معرفة مقادير السلف ، وعمق علومهم ، وقلة تكلفهم ، وكمال بصائرهم . وتالله ما امتاز عنهم المتأخرون الا بالتكلف والاشتغال بالاطراف التي كانت همة القوم مراعاة أصولها ، وضبط قواعدها ، وشد معاقدها ، وهممهم مشمّرة الى المطالب العالية في كل شيء . فالمتأخرون[1] في شأن ، والقوم في شأن آخر ، وقد جعل الله لكل شيء قدرا .

وقد شرح هذه العقيدة غير واحد من العلماء ، ولكن رأيت بعض

---

(١) في الاصل : والمتاخرون .

الشارحين قد أصغى الى أهل الكلام المذموم ، واستمد منهم ، وتكلم بعبـاراتهم .

والسلف، لم يكرهوا التكلم بالجوهر والجسم والعرض ونحو ذلك لمجرد كونه اصطلاحا جديدا على معان صحيحة ، كالاصطلاح على ألفاظ العلوم الصحيحة ، ولا كرهوا أيضا الدلالة على الحق والمحاجة لأهل الباطل ، بل كرهوه لاشتماله على أمور كاذبة مخالفة للحق ، ومن ذلك مخالفتها الكتاب والسنة ، ولهذا لا تجد عند أهلها من اليقين والمعرفة ما عند عوام المؤمنين ، فضلا عن علمائهم .

ولاشتمال مقدماتهم على الحق والباطل ، كثر المراء والجدال ،واتتشر القيل والقال ، وتولد/لهم/عنها من الاقوال المخالفة للشرع الصحيح والعقل الصريح ما يضيق عنه المجال . وسيأتي لذلك زيادة بيان عند قوله : « فمن رام علم ما حظر عنه علمه » .

وقد أحببت أن أشرحها سالكا طريق السلف في عباراتهم ، وأنسج على منوالهم ، متطفلا عليهم ، لعلي أن أنظم في سلكهم ، وأدخل في عدادهم ، وأحشر في زمرتهم (مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحَسُن أولئك رفيقا) النساء : ٦٩ . ولما رأيت النفوس مائلة الى الاختصار ، آثرته على التطويل والاسهاب . (وما توفيقي الا بالله عليه توكلت واليه أنيب) هود : ٨٨ ./وهو حسبنا ونعم الوكيـل / .

قوله : (نقول في توحيد الله معتقدين بتوفيق الله ان الله واحد لا شريك له) .

ش : اعلم أن التوحيد أول دعوة الرسل ، وأول منـازل الطريق ، وأول مقام يقوم فيه السالك الى الله عزّ وجلّ . قال تعالى : (لقد أرسلنا نوحا الى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره)الاعراف:٥٩ .

وقال هود عليه السلام لقومه : (اعبدوا الله ما لكم من اله غيره) الاعراف : ٦٥ . وقال صالح عليه السلام لقومه : (اعبدوا الله ما لكم من اله غيره) الاعراف : ٧٣ . وقال شعيب عليه السلام لقومه : (اعبدوا الله ما لكم من اله غيره) الاعراف : ٨٥ . وقال تعالى : (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) النحل : ٣٦ . وقال تعالى: (وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه أنه لا اله الا أنا فاعبدون) الانبياء : ٢٥ . وقال صلى الله عليه وسلم : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله »[1] . ولهذا كان الصحيح أن أول واجب يجب على المكلف شهادة أن لا اله الا الله ، لا النظر ، ولا القصد الى النظر ، ولا الشك ، كما هي أقوال لارباب الكلام المذموم . بل أئمة السلف كلهم متفقون على أن أول ما يؤمر به العبد الشهادتان ، ومتفقون على أن من فعل ذلك قبل البلوغ لم يؤمر بتجديد ذلك عقيب بلوغه ، بل يؤمر بالطهارة والصلاة اذا بلغ أو ميز عند من يرى ذلك . ولم يوجب أحد منهم على وليه أن يخاطبه حينئذ بتجديد الشهادتين ، وان كان الاقرار بالشهادتين واجبا باتفاق المسلمين ، ووجوبه يسبق وجوب الصلاة ، لكن هو أدى هذا الواجب قبل ذلك .

وهنا مسائل تكلم فيها الفقهاء : كمن صلى ولم يتكلم بالشهادتين ، أو أتى / بغير ذلك من خصائص الاسلام ، ولم يتكلم بهما ، هل يصير مسلما أم لا ؟ والصحيح أنه يصير مسلما بكل ما هو من خصائص الاسلام . فالتوحيد أول ما يدخل به في الاسلام ، وآخر ما يخرج به من الدنيا ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من كان آخر كلامه لا اله الا الله دخل الجنة » [2]/ . وهو أول واجب وآخر واجب .

---

(١)/ متفق عليه من حديث ابن عباس وغيره من الاصحاب وهو مخرج في « الصحيحة » (٤٠٦) .

(٢)/ حديث حسن او صحيح . رواه الحاكم وغيره ، وقد خرجته في « ارواء الغليل » .

فالتوحيد أول الامر وآخره ، أعني : توحيد الالهية ، فان التوحيد يتضمن ثلاث أنواع :

أحدها : الكلام في الصفات. والثاني : توحيد الربوبية ، وبيان أن الله وحده خالق كل شيء. والثالث : توحيد الالهية ، وهو استحقاقه سبحانه وتعالى أن يعبد وحده لا شريك له .

أما الاول : فان نفاة الصفات أدخلوا نفي الصفات /في/ مسمى التوحيد ، كجهم بن صفوان [1] ومن وافقه ، فانهم قالوا : اثبات الصفات يستلزم تعدد الواجب ، وهذا القول معلوم الفساد بالضرورة ، فان اثبات ذات مجرده عن جميع الصفات لا يتصور لها وجود في الخارج ، وانما الذهن قد يفرض المحال ويتخيله وهذا غاية التعطيل . وهذا القول قد أفضى بقوم الى القول بالحلول والاتحاد ، وهو أقبح من كفر النصارى ، فان النصارى خصوه بالمسيح ، وهؤلاء عموا [2] جميع المخلوقات .ومن فروع هذا التوحيد : أن فرعون وقومه كاملو الايمان ، عارفون بالله على الحقيقة .

ومن فروعه : أن عبّاد الاصنام على الحق والصواب ، وأنهم انما عبدوا الله لا غيره .

ومن فروعه : أنه لافرق في التحريم والتحليل بين الام والاخت والاجنبية ، ولا فرق بين الماء والخمر ، والزنا والنكاح ، والكل من عين واحدة ، لا بل هو العين الواحدة .

ومن فروعه : أن الانبياء ضيقوا على الناس .
تعالى الله عما يقولون علوّا كبيرا .

وأما الثاني : وهو توحيد الربوبية ، كالاقرار بأنه خالق كل شيء ،

---

(١) هو ابو محرز جهم بن صفوان السمرقندي الضال المبتدع .
(٢) في الاصل : عمموا .

وأنه ليس للعالم صانعان متكافئان في الصفات والافعال ، وهذا التوحيد حق لا ريب فيه ، وهو الغاية عند كثير من أهل النظر والكلام وطائفة من الصوفية ، وهذا التوحيد لم يذهب الى نقيضه طائفة معروفة من بني آدم، بل القلوب مفطورة على الاقرار به أعظم من كونها مفطورة على الاقرار بغيره من الموجودات ، كما قالت الرسل فيما حكى الله عنهم : (قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السموات والارض) ابراهيم : ١٠ .

وأشهر من عُرف تجاهله وتظاهره بانكار الصانع فرعون ، وقد كان مستيقنا به في الباطن ، كما قال له موسى : (لقد علمتَ ما أنزل هؤلاء الا ربُّ السموات والارض بصائرَ) الاسراء : ١٠٢ . وقال تعالى عنه وعن قومه : (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا) النمل : ١٤ . ولهذا لما قال : وما رب العالمين ؟ على وجه الانكار له تجاهلَ العارف ، قال له موسى : (رب السموات والارض وما بينهما ان كنتم موقنين . قال لمن حوله ألا تستمعون . قال ربكم ورب آبائكم الاولين . قال انَّ رسولكم الذي أرسل اليكم لمجنون . قال رب المشرق والمغرب وما بينهما ان كنتم تعقلون) الشعراء : ٢٤ ــ ٢٨ .

وقد زعم طائفة أن فرعون سأل موسى مستفهما عن الماهية ؛ وأن المسؤول عنه لما لم تكن له ماهية عجز موسى عن الجواب وهذا غلط . وانما هذا استفهام انكار وجحد ، كما دل سائر آيات القرآن على أن فرعون كان جاحدا لله نافيا له ، لم يكن مثبتا له طالبا للعلم بماهيته . فلهذا بين لهم موسى أنه معروف ، وأن آياته ودلائل ربوبيته أظهر وأشهر من أن يُسأل عنه بما هو ؟ بل هو سبحانه أعرف وأظهر وأبين من أن يُجهل ، بل معرفته مستقرة في الفطر أعظم من معرفة كل معروف . ولم يُعرف عن أحد من الطوائف أنه قال : ان العالم له صانعان متماثلان في الصفات والافعال ، فان الثنوية من المجوس ، والمانوية القائلين بالاصلين:

النور والظلمة ، وأن العالم صدر عنهما ـ : متفقون على أن النور خير من الظلمة ، وهو الآله المحمود، وأن الظلمةشريرة مذمومة ، وهم متنازعون في الظلمة ، هل هي قديمة أو محدثة ؟ فلم يثبتوا ربين متماثلين .

وأما النصارى القائلون بالتثليث ، فانهم لم يثبتوا العالم ثلاثة أرباب ينفصل بعضهم عن بعض ، بل متفقون على أن صانع العالم واحد ، ويقولون : باسم الابن والاب وروح القدس اله واحد . وقولهم في التثليث متناقض في نفسه ، وقولهم في الحلول أفسد منه ، ولهذا كانوا مضطربين في فهمه ، وفي التعبير عنه ،لايكاد واحد منهم يعبر عنه بمعنى معقول ، ولا يكاد اثنان يتفقان على معنى واحد ، فانهم يقولون : هو واحد بالذات ، ثلاثة بالاقنوم ! والاقانيم يفسرونها تارة بالخواص ، وتارة بالصفات ، وتارة بالاشخاص . وقد فطر الله العباد على فساد/ هذه/ الاقوال بعد التصور التام . وبالجملة فهم لا يقولون باثبات خالقين متماثلين .

والمقصود هنا : أنه ليس في الطوائف من يثبت للعالم صانعين متماثلين، مع أن كثيرا من أهل الكلام والنظر والفلسفة تعبوا في اثبات هذا المطلوب وتقريره . ومنهم من اعترف بالعجز عن تقرير هذا بالعقل ، وزعم أنه يتلقى من السمع .

والمشهور عند أهل النظر اثباته بدليل التمانع ، وهو : أنه لو كان للعالم صانعان فعند اختلافهما مثل أن يريد أحدهما تحريك جسم وآخر تسكينه ، أو يريد أحدهما احياءه والآخر اماتته ـ : فإما أن يحصل مرادهما ، أو مراد أحدهما ، أو لا يحصل مراد واحد منهما . والاول ممتنع ، لانه يستلزم الجمع بين الضدين، والثالث ممتنع ، لانه يلزم خلو الجسم عن الحركة والسكون ، وهوممتنع ، ويستلزم أيضا عجز كل

منهما ، والعاجز لا يكون الها ، واذا حصل مراد أحدهما دون الاخر ، كان هذا هو الاله القادر ، والاخر عاجزا لا يصلح للالهية .

وتمام الكلام على هذا الاصل معروف في موضعه ، وكثير من أهل النظر يزعمون أن دليل التمانع هو معنى قوله تعالى : (لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا) الانبياء : ٢٢ . لاعتقادهم أن توحيد الربوبية الذي قرروه هو توحيد الالهيه الذي بيّنه القرآن ، ودعت اليه الرسل عليهم السلام ، وليس الامر كذلك ، بل التوحيد الذي دعت اليه الرسل ، ونزلت به الكتب ، هو توحيد الالهية المتضمن توحيد الربوبية ، وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، فان المشركين من العرب كانوا يقرّون بتوحيد الربوبية ، وأن خالق السموات والارض واحد ، كما اخبر تعالى عنهم بقوله : (ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله) لقمان : ٢٥ . (قل لمن الارض ومن فيها ان كنتم تعلمون . سيقولون لله قل أفلا تذكّرون) المؤمنون : ٨٤ ، ٨٥ . ومثل هذا كثير في القرآن ، ولم يكونوا يعتقدون في الاصنام أنها مشاركة لله في خلق العالم ، بل كان حالهم فيها كحال أمثالهم من مشركي الامم من الهند والترك والبربر وغيرهم ، تارة يعتقدون أن هذه تماثيل قوم صالحين من الانبياء والصالحين ، ويتخذونهم [1] شفعاء ، ويتوسلون بهم الى الله ، وهذا كان أصل شرك العرب ، قال تعالى حكاية عن قوم نوح : (وقالوا لا تذرُنّ آلهتكم ولا تذرُن وداً ولا سُواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً) — نوح : ٢٣ — وقد ثبت في « صحيح البخاري » ، وكتب التفسير ، وقصص الانبياء وغيرها ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وغيره من السلف ، أن هذه اسماء قوم صالحين في قوم نوح ، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ، ثم صوّروا تماثيلهم ، ثم طال عليهم الامد ، فعبدوهم وأن هذه الاصنام

---

(١) في الاصل : ويتخذوهم . وهذا البحث انفردت به المخطوطة .

بعينها صارت الى قبائل العرب ، ذكرها ابن عباس رضي الله عنهما ، قبيلة قبيلة [1] وقد ثبت في « صحيح مسلم » عن أبي الهيّاج الاسدي ، قال : قال لي عليّ بن أبي طالب رضى الله عنه : ألا أبعثك على ما بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ « أمرني أن لا أدع قبرا مشرفا الا سويته ، ولا تمثالا الا طمسته » [2] وفي « الصحيحين » عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في مرض موته : « لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » [3] يحذّر ما فعلوا ، قالت عائشة رضي الله عنها : ولولا ذلك لابرز قبره ، ولكن كره أن يتخذ مسجدا ، وفي « الصحيحين » أنه ذكر في مرض موته كنيسة بأرض الحبشة ، وذكر من حسنها وتصاوير فيها ، فقال : « ان أولئك اذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا ، وصوّروا فيه تلك التصاوير ، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة »[4] . وفي « صحيح مسلم » عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال قبل أن يموت بخمس : « ان من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور انبيائهم وصالحيهم مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فاني أنهاكم عن ذلك » [5] .

ومن أسباب الشرك عبادة الكواكب واتخاذ الاصنام بحسب ما يظن أنه مناسب للكواكب /من/ طباعها .

وشرك قوم ابراهيم عليه السلام كان ـ فيما يقال ـ من هذا الباب .

---

(١) صحيح وهو موقوف في حكم المرفوع .

(٢) صحيح اخرجه مسلم واحمد وغيرهما وله طرق ذكرتها في « ارواء الغليل » ، و « احكام الجنائز » (ص ٢٠٧) .

(٣) صحيح وهو من حديث عائشة وابي هريرة ، وله شواهد كثيرة . خرجتها في « تحذير الساجد » وفي « احكام الجنائز » (ص٢١٦).

(٤) صحيح وهو من حديث عائشة ، خرجته في الارواء .

(٥) صحيح ، ورواه ابو عوانة في « صحيحه » ايضا ، وغيره .